تكوين الفكر العربي قبل الإسلام

- من اللغة -

الدكتور رشاد محمد خليل

(I)

مقدمة :

تدرس اللغة اليوم على اساس انها ظاهرة اجتماعية وقد دخلت فى مجال الدراسة الاجتماعية باعتبارها جزءا من علم الاجتماع العام ، وانشىء لدراستها فرع خاص فى علم الاجتماع يدرسها على اساس انها ظاهرة اجتماعية ، ويسمى هذا الفرع (علم الاجتماع اللغوى) .

كما تدرس فى نفس الوقت على انها ملكة انسانية ، وقد دخلت بهذا الاعتبار مجال الدراسات النفسية ، واصبحت دراستها جزءا من علم النفس العام ، وانشىء لدراستها فرع خاص فى علم النفس يدرسها على اساس نفسى ، ويسمى هذا الفرع : (علم النفس اللغوى) .

ويعرف اللغويون المحدثون اللغة بانها « نظام من الرموز الصوتية يعبر بها كل قوم عن اغراضهم » ، وهو تعريف يشير الى الطبيعة الصوتية للرموز اللغوية من ناحية كما يشير الى وظيفة اللغة الاجتماعية من ناحية اخرى .

فدراسة اللغة فى ذاتها تعنى دراسة بنيتها من جوانبها الصوتية والتركيبية والمعجمية .

ودراسة اللغة فى علاقتها بالمجتمع تعنى دراسة علاقة اللغة بالجوانب الاقتصادية والسياسية والدينية والثقافية فى مجتمع بعينه من ناحية ، ومدى تأثير هذه الجوانب على بنية اللغة وتطورها من ناحية اخرى(1).

وقد درست اللغة العربية قديما دراسة مستفيضة من حيث بنيتها نحوا وصرفا وتركيبا ومعجما ، ولكن دراسة بنيتها فى ضوء علوم اللغة الحديثة ما زالت متعثرة ، تقوم على بعض الجهود الفردية المتناثرة هنا وهناك ، كما تقوم على الاجتهادات الفردية ايضا ، ويمكن القول ان دراسة اللغة العربية دراسة حديثة نحوا وصرفا وتركيبا ومعجما لما تكد تبدأ ، لان محور

(1) اللغة العربية عبر القرون ، محمود حجازى ص 4

الدراسة لما يزل عرضا للدراسة القديمة ، او نقدا لها او دفاعا عنها ، وذلك فى الاعم الاغلب ·

اما دراسة اللغة العربية فى علاقتها بالمجتمع باعتبارها ظاهرة حضارية فانها تكاد تكون فى حكم المعدومة ، واقول فى حكم المعدومة لان الدراسات التى تناولت اللغة العربية كظاهرة حضارية لم تكن دراسات بالمعنى العلمى ، وانما كانت فى العديد منها ستارا علميا يراد من ورائه تصوير العرب بصورة المتخلفين عقليا وحضاريا ، ثم تأييد هذا التصور بجعله تكوينا اساسيا يظهر اثره فى تركيب لغتهم ويفسر بطبيعة الجنس حينا وجبرية البيئة حينا لكنه ايا كانت التفسيرات لا يصدق عليهم وعلى لغتهم كيفما كانوا ، وصف التخلف ·

ومما هو جدير بالاسف حقا ان هذه الدراسات المشبوهة قد اثرت فى الفكر العربى الحديث تأثيرا عميقا ، وظهر هذا الاثر فى كثير من الابحاث العربية التى اعتبرت نتائج هذه الدراسات مسلمات تنطلق منها ابحاثهم ·

ومن امثلة هذه الدراسات التى تنتهى الى احكام قطعية متعضة ، ما ذهب اليه رينان من ان « الجنس السامى اذا قوبل بالجنس الهندى الاوربى يعتبر حقا تركيبا ادنى للطبيعة الانسانية » (2) « فالدين واللغة عندهم لم ينشا بجهد عقلى . . وليس هناك شىء يخترع » (3) والوجدان السامى « واضح لكنه محدود » (4) والاسلوب السامى ينقصه نقصانا تاما الرؤية عن بعد ، وذلك بان اللغات السامية مبسوطة بسطا ، ولا تأخير فيها ولا تقديم ، فهى لا تعرف من طرائف التعبير غير قرن الافكار بعضها ببعض » (5) « انه ينقص الساميين عامة احدى درجات التراكيب التى نعتبرها ضرورية للتعبير عن الفكر تعبيرا كاملا فاقصى ما يعنون به ضم الكلمات فى جملة واحدة ، وهم لا يفكرون فى ضم الجمل نفسها بعضها الى بعض ، فاسلوبهم كما يقول ارسطوطاليس هو الاسلوب اللانهائى ، الذى يتبع طريقة الجزئيات المتراكمة التى تتعارض والجملة الكاملة فى تجانسها والمعروفة فى اليونانية واللاتينية ، فالشىء عندهم فى البلاغة ، كما هو الحال فى المعمار ، هو الزخرفة العربية المعروفة (6) ·

ويكرر جوتييه نفس الافكار تقريبا ولكنه يفسرها بالجبرية البيئية بدلا من طبيعة الجنس ، فالذى يميز الشعب العربى هو « تفصيل الطرفين ، وقرن الاضداد، والمتشابهات بالاولى ، والانتقال من هذا الى ذاك انتقالا فجائيا اما الميز للعبقرية الآرية فهو التقريب التدريجى بين الاضداد ، ووصلها بعضها ببعض وصلا متناسقا بفضل ما يضعه بينها من الاطراف الوسطى المختارة بمهارة فهو الوحدة فى الاختلاف ، وهو الشعور بالتنوع والتدرج المتوالى داخل سلسلة منسقة تنسيقا منتظما (7) ·

اما اوليرى فيرى انه مما لا فائدة منه ان تدعى ان تاريخ الفلسفة العربية يرينا ضعفا فى اصالة العقل السامى ، لسبب واحد هو اننا لا نجد واحدا من فلاسفة المرتبة الاولى بعد الكندى عربيا بمولده ، وقليل منهم يمكن ان يوصف بانه سامى وقد يكون اكثر دقة ان نقول ان الفلاسفة الاغريق قد تفردوا حتى وقت متاخر جدا بمحاولة اى شىء يصدق عليه انه دراسة نفسية علمية (8) ·

ومن امثلة العرب من معاصرينا الذين اخذوا هذه الاحكام المعتسفة مسلمات بنوا عليها دراستهم هو احمد امين فهو يردد ان « الخيال العربى ، محدود غير متنوع » اما عقليته فتتميز « بعدم القدرة على فهم الارتباط بين العلة والمعلول ، والسبب والمسبب فهما

---

(2) المدخل ص 63 ·
(3) الفكر العربى فى التاريخ ، اوليرى ترجمة تمام حسان ص 150 ، 151 ·
(4) فجر الاسلام ، احمد امين ص 39 ·
(5) فجر الاسلام ص 42 ·
(6) فجر الاسلام ص 42 ·
(7) المدخل ص 63 ·
(8) الفكر العربى ومكانه فى التاريخ ، اوليرى ترجمة تمام حسان ص 150 و 151 ·

تاما » (9) « وطبيعة العقل العربى لا تنظر الى الاشياء نظرة عامة شاملة ، وليس فى استطاعتها ذلك » (10) « ونظرته سطحية اذا نظر الى الشيء الواحد لا يستغرقه بفكره » (11) « فالعقل العربى تركيبى لا تحليلى ، وانه يعنى بالجزئيات ولا يحفل بالكل ، وهو لذلك عرف ادب المثل ولم يعرف القصة ، والفرق بين التركيب والتحليل يتضح فى هذين النوعين من الانواع الادبية · فالمعنى الكبير يمكن تركيزه فى المثل الذى لا يتجاوز السطر ، وهذا المعنى نفسه يمكن ان يصور فى قصة طويلة ، المثل عملية تجريد وتركيب ، وفى القصة على العكس يحدث تشخيص وتحليل وتفصيل » (12) ثم يفصل القول فى تطبيق هذه الاحكام على لغة العرب وآدابهم ·

واحدث الدراسات التى تابعت نفس الاتجاه دراسة عز الدين اسماعيل فى كتابه « الاسس الجمالية للنقد العربى » فقد ردد فيه نفس الافكار عن النظرة الجزئية ، والعقلية التركيبية ، وفسر ذلك بالحرارة والمناخ ، والدائرة المغلقة فى الصحراء ، فالحرارة والمناخ يفسران ظاهرتى الثبات على التقاليد والتكرار ، والصحراء والحرارة ودائرة الافق المغلق تفسرهما ايضا وتفسر معهما الشعور باللامحدود واللانهائى ، كما تفسر لنا وحدة البيت فى القصيدة ، وتفسر تفكك القصيدة كما أن طبيعة العقل العربى التركيبية تفسر لنا اهتمامه بالبيت الواحد دون القصيدة والنظرة التجريدية فى طبيعة هذا العقل تفسر لنا عدم عنايته بالتفصيلات واكتفائه بالخطوط الاساسية ، بل ان من دلالات النظرة التركيبية فى طبيعة العقل العربى ما عرف عن قدرته على اللمحة الفكرية دون الفكرة الكلية (13) ·

على أن هناك ايضا أحكاما قطعية تعسفية على طبيعة العقلية العربية قبيل الاسلام ، ليس مصدرها المستشرقين ولم تكن على اساس من الدراسة اللغوية وانما مصدرها علماء ومفكرون مسلمون ساقوها فى معرض الدفاع عن الاسلام وابراز فضله على العرب ابتداء من ابن خلدون الى محمد عبده وعباس العقاد ومحمد البهى ومحمد حسن الباقورى · فابن خلدون يذهب الى ان جملة العرب كانوا « اهل بغى والحاد. وقطع للارحام ، وتنافس فى الردى ، واعراض عن ذكر الله ، فكانت عبادتهم الاوثان والحجارة ، واكلهم العقارب والخنافس والحيات والجعلان واشرف طعامهم اوبار الابل اذا امروها فى الحرارة فى الدم ، واعظم عزهم وغادة على آل المنذر وآل جفنة ، وبنى جعفر ونجعة من ملوكهم ، وانما كان تنافسهم المؤودة والسائمة والوصيلة والحامى » (14) ·

ويرى محمد عبده أنه « قد بلغ العرب من بخافة العقل حدا صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها ، فلما جاعوا أكلوها ، وبلغوا من تضعضع الاخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصا من عار حياتهن ، او تنصلا من نفقات معيشتهن وبلغ الفحش فيهم مبلغا لم يعد معه للعفاف قيمة » (15) ·

وهو يرى ان الاسلام جاء قوة فى قلب الضعف ، وسلطانا فى مظنة العجز وعلما فى وسط امية ، ورشادا فى غمرات الجاهلية (16) ·

أما العقاد فيذهب الى ان حرية العرب قبل الاسلام « هى حرية مصدرها كمصدر الحرية التى تتمتع بها الاوابد فى الخلاء ، او تتمتع بها الطير فى الهواء وعلتها انها حرية مصدرها قلة المنازعة عليها لا قوة المبادىء التى تدعمها وتحميها ، فليست هى حقا من الحقوق ، ولكنها مال همل مباح لقلة الراغبين فيه ، وغيبة المنتفعين بالعدوان عليه » (17) ويقول « نشأت

(9) فجر الاسلام ، احمد امين ص 39 ·
(10) فجر الاسلام ص 42 ·
(11) فجر الاسلام ص 42 ·
(12) فجر الاسلام ص 61 ·
(13) انظر الاسس الجمالية ص 283 الى 288 ، ص 279 الى 282 ·
(14) تاريخ ابن خلدون ج 2 ص 167 — 168 ·
(15) رسالة التوحيد ، محمد عبده ص 180 ·
(16) نفس المصدر ، ص 191 ·
(17) الديمقراطية فى الاسلام ، العقاد ص 27 — 28 ·

الدعوة الاسلامية فى بيئة مريضة بأدواء العصبيات وضروب الضلال فى اختلاط العبادات والخرافات فلو جرت الاسباب التى تدركها فى مجراها المعهود ، فالدعوة التى تأتى من قبل هذه البيئة لن تدعو الى اله واحد يتساوى لديه جميع الناس ، ولن تمنح الانسان حقا واحدا يتساوى فيه جميع الناس » (18).

ويذهب محمد البهى الى أن العرب قبل الاسلام كانوا قوما امميين فى ضلال مبين ، وانهم لم يكونوا اصحاب حضارة (19) .

أما الباقورى فيذهب الى القول بأنه فى جزيرة العرب « عاشت أمة جاهلية فكانت فى جملتها أذل الناس ذلا ، واشقاهم عيشا ، وابينهم ضلالة ، واعراهم جلودا واجوعهم بطونا ، معكومين على راس حجر ، بين الاسدين فارس والروم . . والله ، ما نعلم امة فى حاضر الارض كانت اصغر حظا وادق شانا منهم ، حتى جاء القرآن فنقلهم من الذلة الى العزة ، ومن الشقاء الى السعادة » (20) .

وليس يهم فى ميزان العلم الصحيح أن تصدق هذه الاحكام على عقلية العرب ولغتهم أو لا تصدق ، وانما المهم بمقياس العلم الصحيح أن تصح هذه الاحكام أو يصح غيرها نتيجة دراسة منهجية دقيقة غير متحيزة ولا متحاملة للتراث الوحيد الذى خلفه لنا هؤلاء القوم محط الحكم والتقدير — وهو اللغة ، فاللغة وحدها هى كل ما خلفه هؤلاء الناس من تراث ، اذ لم يتركوا لنا أثرا باقيا مما يعتده المؤرخون من وثائق معتمدة للبحث التاريخى مثل الاوراق والبرديات والنقوش والعمائر ، والتماثيل . . الخ . هذه الوثائق .

واقصد بالعرب الذين ظهر الاسلام بين ظهرانيهم، لا اصعد فى تاريخهم جنوبا الى حضارات اليمن ، ولا شمالا الى حضارات الشمال اقصد عرب الحجاز ونجد بالتحديد ، فلغتهم هى التى بقيت لنا ، وهم الذين قدموا لنا الاسلام .

ومهمة هذا البحث هى الكشف عن تكوين العقل العربى من خلال تراثهم اللغوى ، وذلك لتبين وجه الحق فيما ذكره مستشرقون وباحثون عرب ومسلمون عن طبيعة العقلية العربية ، وطبيعة اللغة العربية ، ولكشف المناخ الفكرى الذى ظهر فيه الاسلام من ناحية ثانية ، ولكشف الاساس الفكرى الذى يقوم عليه بناء اللغة العربية وتركيبها من ناحية ثالثة .

اعمل ذلك اقتناعا منى بانه من اوجب الواجبات علينا فى هذه المرحلة الدقيقة من تريخ أمتنا ، أن نعيد النظر فى التصورات المقررة حاليا لتاريخ هذه الامة وحضارتها وفكرها ، حتى نعرف انفسنا معرفة دقيقة ، لا تنهض على أساس من افكار وآراء ومسلمات بنيت على دراسات سريعة غير مستوعبة وتقوم على سوء الفهم أو سوء النية .

واعمل ذلك اقتناعا منى بأن كشف مناخ الاسلام جزء اساسى من فهمه ، والاسلام وهو دين الله الحق ، لا يقلل من مكانته ، ولا يهون من شانه قط ، ان تظهر الدراسة العلمية أن القوم الذين ظهر بين ظهرانيهم كانوا اهل فكر مستنير ولعل العكس هو الصحيح لانه قد يفسر لنا اشياء فى حركة الاسلام وانتشاره ما تزال مستعصية على التفسير .

واعمل ذلك اقتناعا منى بأن فهم الاساس الفكرى للبنية اللغوية ، ضرورى لفهم اسلوبها وطبيعة تراكيبها ويعين من ثم على تحديد الاسلوب السليم الذى تتطور به وتنمو وتتجدد فى اطار تركيبها الاساسى، وفى ضوء خصائصها الذاتية .

وقد بنيت هذه الدراسة على اساس من دراسة تاريخ اللغة وتطورها لكشف مدى اصالتها ومدى عراقة الفكر العامل فيها ، ثم دراسة بعض الخصائص ذات الدلالة المحددة على طبيعة الفكر ومستواه من جهة ، وذات الدلالة على اسلوب اللغة ومنهجها فى البناء والتطور والنمو ، ثم دراسة تطبيقية على الشعر القديم (الجاهلى) لمتابعة اطراد الظواهر اللغوية ، واسسها الفكرية فى اساليب التعبير الفنى شكلا ومضمونا يضاف الى ذلك دراسة معجمية للشعر القديم

---

(18) عبقرية محمد العقاد ص 24 .
(19) الفكر الاسلامى الحديث ، البهى ص 223 — 224 .
(20) اثر القرآن فى اللغة العربية ، الباقورى ص 9 .

(الجاهلى) حول قضايا الفكر الاساسية وهى : الله ، الوجود ، النفس ، الاخلاق — مع مقارنة تصور الفكر العربى لهذه القضايا بتصور الفكر الاغريقى والمدارس التى تاثرت به على طول تاريخ الفلسفة القديمة قبل الاسلام ، ثم بيان موقف الاسلام من التصور العربى فى هذه القضايا .

وفى ضوء هذه الدراسة الشاملة المتكاملة يمكن فقط الحكم على اللغة العربية والعقلية العربية بمنطق العلم وموازينه . وايا كانت الصورة التى تكشف عنها الدراسة ، فانها ضرورية ليس فقط لبيان وجه الحق فى طبيعة اللغة العربية والعقلية العربية بل للكشف كذلك عن أصالة الفكر العربى ، وأصالة منابعه ، وأصالة مناهجه ، وطبيعة الدور الذى اداه للانسانية عبر التاريخ .

وعلى الله قصد السبيل .

رشاد محمد خليل

*